الرشوة آفة المشرق

من العبر البانية لابناء العصور التالية ما اصاب ممالك المشرق في خلال القرن التاسع عشر. فانهُ لما بزغت شمس هذا القرن كانت تلك الممالك مستقلة يتنعَّم ولاتها بخيراتها ولا تبين عوراتهم لانهم في الهوى شرعٌ. فلما اتصل بهم بعض الاوربيين وهم في المقام الاعلى من عزة النفس والترفع عن الدنايا والتفاني في حب الوطن بانت نقائص ولاة المشرق "وبضدها تتبين الاشياء" فظهروا ملاةً لاهمَّ لهم الاَّ حلب الرعيَّة وجز صوفها واكل لحمها. فتغلَّب حزم الانكليز واتقنهم على ممالك الهند وهم لو دخلوها كلهم ما بانوا فيها الاَّ كما تبين النكتة البيضاء في البقرة السوداء وتغلَّب الهولنديون على جاوى والفرنسويون على التنكين وغيرهم على غيرها

قام الفاتحون من سالف الدهر ودوَّخوا الممالك وكانوا يالفٍ يقهرون الفين او ثلاثة او عشرة ولكن لم يحدث قط ان حفنةً من الرجال تستولي على ممالك يبلغ اهلها عشرات الملايين وتسوسهم عامًا بعد عام ولا تجمعهما جامعة جنسيَّة ولا ملَّيَّة

ولضعف المشرق اسبابٌ جمَّة منها ما يرجع الى شعبهِ ومنها ما يرجع الى حكامهم. وهؤلاء في رأينا العلة الكبرى لانحطاط الممالك الشرقيَّة وداؤهم الدفين الذي يشتركون فيهِ كبارًا وصغارًا داء الرشوة اي الاتجار بالمناصب والحقوق. فان الامر يبقى واجبًا لذاتهِ حتى يصير سلعةً تباع وتشترى تنتقض قيمتهُ الذاتيَّة وتقوم مقامها قيمتهُ المالَّيَّة. لذلك لا يبالي ولاة المشرق بمصالح رعاياهم ولا بمحبة اوطانهم ولا بمخططهم السياسيَّة الاَّ بمقدار ما يتنعمون منها فماتت نفوس الرعيَّة من جورهم ولم يبقَ فيها من يقول كما قال اسلافهم

اذا ظلمت حكامنا وولاتنا خصمناهمُ بالمرهفات الصوارم

بالضد من ذلك مناظروهم الاوربيون فانهم يحسبون مجد الوطن وعزة النفس والبر بالرعيَّة فوق كل مالٍ وكسب. فلم يلتقِ الخصمان حتى انكشفت عورة المشارقة وبانت مغامز الضعف فيهم فتقلَّص ظلُّ مجدهم سريعًا

من امثلة ذلك ما ذكرناهُ في كتاب سر النجاح عن القائد الانكليزي دوق ولنتون قاهر بونابرت في واقعة وترلو فانهُ لما كان في بلاد الهند تغلَّب على خمسين الفًا من الهنود وليس معهُ سوى اربعة آلاف وخمس مئة مقاتل ثم جاءهُ وزير نظام حيدر اباد يستعلم منهُ

عن شروط المعاهدة وعرض عليهِ اكثر من مئة الف جنيه رشوةً فالتفت اليهِ وقال لهُ "اراك تكتم السر" قال "نعم" قال "وانا كذلك" وصرفهُ من حيث اتى . وقد حارب هذا البطل الشهير حروباً كثيرة في بلاد الهند وكان الظفر معقوداً لهُ دواماً. وهي بلاد الغنى والرشوة لكنهُ عاد منها صفر اليدين ولم يحبس شهامتهُ بدرهم من مال اهلها

ومن قبيل ذلك ما يحكى عن نسيبهِ مركيز ولسلي فانهُ رفض مئة الف جنيه عرضها عليهِ مديرو شركة الهند الشرقية بعد غلبة ميسور لا رشوةً لهُ بل جزاء لبسالتهِ . وقال انتم تعلمون شيمتي وشهامتي وشرف نفسي المانع ألّا تضطروني الى رفض ما تعرضونهُ عليَّ . ومثل ذلك ما يروى عن القائد السر تشارلس نيبر فانهُ رفض كل الهدايا ألّتي اهدتها اليهِ امراة الهند وكانت قيمتها تنيف على ثلاثين الف جنيه

قابل ذلك بما يجري في بلاد الصين الآن . وقد ابعدنا المرمى لا لقلة الشواهد عندنا بل لان اصحابنا كالزجاج يسهل كسرهم ولكن لا يأمن كاسرهم من شظية تعلق بيدهِ

لقد الف قراء الصحف اليوميَّة اسم الوزير لي هنغ تشنغ وزير الصين الاول وهم اذا ذكروهُ قابلوهُ بسمرك وغلادستون وعدوهُ احكم وزراء المشرق واشدهم دهاء . عُزل عن منصبهِ منذ عهد غير بعيد وأُمر بالمجيء الى باكين العاصمة فاضطر ان يرشي رجال البلاط بثمانية ملايين من الريالات الصينيَّة اي نحو مليون من الجنيهات لكي يأذن منها سالماً

تقلد هذا الرجل مناصب الحكومة وهو لا يملك درهماً وراتب الوالي لا يزيد على مئة آلاف جنيه في السنة فسار في خطة الولاة وفاقهم في ابتزاز الاموال من الرعيَّة فجمع ثروة طائلة يدفع منها مليون الجنيه ولا تنقص . وكما يبتزُّ المال من الرعيَّة يبتزُّ المقرَّبون الاموال منهُ من امّ الملك فنازلاً

ويستدعي الولاة إلى باكين بامرٍ من الملك ليحلّبوا فيها . اما الوزير لي فاقنع الملك والذين حولهُ ان لا يستدعوهُ الّا مرة كل اربع سنوات لكي يكون لهُ فرصة كافية لجمع الاموال لكن ذلك لم يعفهِ من دفع المرتبات الشهريَّة لام الملك ولولاها لم يبقَ في منصبهِ هذه الاعوام الكثيرة

يقول الخبيرون باحوال تلك البلاد انهُ اذا استتبَّ لرجلٍ ان يتولَّى ولاية بعد ان يدفع مبلغاً كبيراً من المال يستدينهُ من احد الصيارفة لهذهِ الغاية ويعدُ المقربين بمبالغ اخرى يدفعها اليهم تباعاً يمضي الى ولايتهِ ومعهُ آلات التعذيب ألّتي يبتزُّ بها الاموال

وهي مما لم ينسهُ المصريون لان عشرين سنة لا تنزع صورة "العدَّة" من الاذهان . والغالب انهُ يطمع في عمارٍ فيوفي ما استدانهُ ويطعم بطون الجياع في العاصمة

يروى ان رجلاً وجد منصباً سهلاً في ولاية غنية وقيل لهُ ان ثمنهُ مليون من الجنيهات تدفع سلفاً فذهب الى الصيارفة واتفق معهم على ان يدفع لهم جانباً كبيراً من دخل ذلك المنصب فدفعوا عنهُ مليون الجنيه وهم يحسبون انهم يستردونهُ مليونين ولم يكد يتولى المنصب حتى جعلوا يلحون عليهِ بالايفاء فافتش في ابتزاز الاموال وعلت شكوى الناس منهُ حتى بلغت اذني الملك وتكرَّرت مراراً حتى عيل صبرهُ فعزلهُ من منصبهِ قبل ان يتمكن من ايفاء مليون الجنيه الذي ابتاع بهِ المنصب. اما الصيارفة فعلموا ان الفاجعة من الشيطان واستعاضوا بما كبرهُ من غيرهِ عما ضاع لهم عندهُ

يقول الكتَّاب ان ولاة الصين معذورون لان رواتبهم قليلة ونفقاتهم كثيرة تزيد عليها ثلاثين ضعفاً فاذا دخلوا ولاية جعلوا همهم الاول البحث عن اغنيائها وهؤلاء اعتادوا ترضِّي الولاة فلا يثقل عليهم أن يقاسموهم اموالهم والاَّ فكل الولاة بهم تنكيلاً وهم يظلمون سائر الرعيَّة كما يظلمون فلا ينقص مالهم ولا يحبط جاههم والرعية لا تشكو لان تقومها ماتت منذ ادهار "وما لجرح بميت ايلامُ"

يبين من ذلك ان معادن الكسب في ولايات الصين لا في عاصمتها فكلُّ الماهرين في الاحكام الراغبين في المناصب يقصدونها ويبعدون عن العاصمة فلا يبقى فيها الاَّ باعة الوظائف الذين لا همة فيهم ولا نخوة ولا شغل لهم الاَّ السعاية والوشاية ومقاسمة الولاة ما يكسبون . كل الممالك المرتقية تختار اعقل رجالها مشيرين لملكها اما الصين فلا تبقي حولهُ الاَّ الذين نالوا مناصبهم بدعوى الوطنيَّة والتعصُّب الديني ولو كانوا من اجهل الناس

اذا استثنى رجل واحد في وزارة الخارجيَّة الصينيَّة فليس من الموظفين فيها من يعرف شيئاً من تاريخ الممالك الاخرى او جغرافيتها او قوتها وغاية ما يعرفونهُ ان الصين تشغل الجانب الاكبر من المعمور وسائر الممالك كالحبب الطافي على وجه الماء وهم يستمكون بجهلهم لا يحولون عنهُ ولا شأن عندهم لغيرهم من الامم

سنة ١٨٧٤ اشتدَّ الخلاف بين الصين واليابان حتى عزمت اليابان ان تشهر الحرب على الصين وبلغ ذلك السر توماس واد سفير انكلترا فسعى في الصلح قبل انشاب الحرب فتكلَّل سعيهُ بالنجاح وزار وزراء الصين في اليوم التالي وهو يحسب انهم يبالغون في اكرامهِ وشكروه لانهُ انقذهم من حرب هائلة فلم يكلموهُ الاَّ عن حالة الهواء وطعم الشاي الذي كانوا يشربونهُ

وظلوا على مثل ذلك ساعة حتى عيل صبرهُ وقال لهم اما سمعتم بما تمَّ بينكم وبين اليابان فقالوا بلى سمعنا ولم يزيدوا على ذلك حرفاً

ساح الوزير لي في اوربا هذا العام وقابل ملوكها ووزراءها ورأى معالمها ومصانعها وحادث مكانبي جرائدها واعرب عن رغبته في مد سكك الحديد في بلاده وانشاء المعامل فيها ومدح الاوربيين على تقدُّمهم المالي والصناعي ولكنهُ لم يشر بكلمة الى حسن الادارة واصلاح الاحكام كأنهُ يحسب ان الفرق بين بلاده وفرنسا وانكلترا والمانيا قائم بكثرة المعامل والسكك الحديدية لا غير. وهو خطأ فاحش لان الفرق الحقيقي قائم بحسن الادارة وانتشار التعليم والتهذيب. فاذا انتشر التعليم في بلاد وساد فيها العدل واحسن ولاتها الادارة دخلتها المعامل وسكك الحديد وكل وسائل العمران من غير مشقة والاَّ فما دامت الرشوة سائدة فيها والجهل مطبقاً عليها فلا مناص من الخراب العاجل او الآجل. واذا فسدت ادارة البلاد فسدت جنديتها وبحريتها ايضاً. وقد ظهرت نتائج هذا الفساد في الحرب الاخيرة بين الصين واليابان فجنود الصين كثيرة وهي اضعاف جنود اليابان وبعضها مسلح بالاسلحة الحديثة ولكن اكثرها مسلح بالاسلحة القديمة حتى بالقسي والسهام وفي بلاد الصين كثير من دور الصنعة لعمل الاسلحة وفي ثغورها حصون كثيرة مشحونة بالمدافع. والجنود اشداء باسلون لا يخافون الموت ولا يحسبون لهُ حساباً لكن اجورهم قليلة وقوادهم يختلسونها منهم وحب الوطن والاستبسال في اعلاء شأنهِ كلمات لا يفقهون لها معنى الاَّ من ندر منهم. غرض قوادهم الاول قبض الرواتب ونيل الرتب وجمع المال بالبذخ والاسراف

وبالضد من ذلك كلهِ جنود اليابان فانهم مسلحون باجود الاسلحة الحديثة ومتدربون احسن تدريب عسكري وعندهم كل لوازم الجنود حتى لما شرعوا في محاربة الصين لم ينقصهم "زر واحد من ازرار ربطات الجوارب" في ما قيل وقوادهم تعلموا الفنون الحربية في مدارس المانيا وهم مثل في الهمة والشهامة وحب الوطن ولا اسم عندهم للرشوة فتفازوا على الصينيين فوزاً مبيناً في كل المعارك مع ان عددهم اقل من عدد الصينيين كثيراً. ولولا اليابان بين ممالك المشرق لقطعنا الرجاء منهُ. اما الصين فان لم تهبَّ من رقادها ولم يقم لها القدر من يصلح شؤونها تمزقت اوصالها بعد قليل وتملكها الاجانب باطناً ان لم يتملكوها ظاهراً ايضاً. وقس عليها غيرها من الممالك التي نخرها سوس الفساد